

# تصوف ابن خلدون بين التأثير والتأثر وأثبت نسبة

## كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل له

م. م. سحر مهدي أحمد

جامعة البصرة \_ كلية الدراسات التاريخية

قسم التاريخ الإسلامي

### المقدمة:

يتناول هذا البحث العلاقة بين ابن خلدون وبين متصوفة عصره من حيث التأثير والتأثر. تأثر ابن خلدون بالمتصوفة والتصوف وتأثير ذلك على آرائه في الصوفية والتصوف من خلال كتابه شفاء السائل لتهذيب المسائل وكتابة المقدمة وما اشتمل الكتابين من آراء مختلفة لدى المؤلف الواحد والذي أثر ذلك على الآراء حول صحة نسبة كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل لابن خلدون من عدمها وأرجعنا هذا الاختلاف في رؤية ابن خلدون للتصوف إلى تطور في تفكير الكاتب نفسه في الكتابين من خلال استعراض آرائه ومن ثم تأكيد نسبة الكتاب لابن خلدون من خلال طرح التحقيقات التي أدرجت هذا المؤلف ضمن مؤلفات ابن خلدون وقد حققت في هذه المسائل ومن ثم أثباتها وقد بحث هذا البحث في تأثر ابن خلدون بمتصوفة عصره ومناظرته من شيوع التصوف في بلاد المغرب ومصر بشكل واسع وتأثيره عليه وعلى آراء الصوفية والأوضاع العامة والخاصة التي أثرت في تصوف ابن خلدون مما خلق له جو من التفكير الروحي والانعزال ومن ثم التأثير والتأثر على التصوف وأهله ، وقد استعنت بعدة مصادر قديمة وحديثة ودوريات ومنها كتب ابن خلدون نفسه المقدمة ورحلة ابن خلدون وكتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل بطبعاته المختلفة وغيرها من المصادر.

### التصوف في عهد ابن خلدون واتصاله بالمتصوفة:

لا شك في أن ابن خلدون تأثر وأثر على التصوف ، ويعود هذا إلى فترات متأخرة من حياته ، أما إذا أخذنا نظرة على تأثره بالدين منذ وقت مبكر من صباه فقد كانت أول دروس لابن خلدون

كدروس كل مسلم في القرآن وتفسيره ، والفقه وواجبات المتدين فاثرت فيه تلك التربية الدينية طوال حياته ، وظهر تأثيرها حتى في احكامه كمؤرخ<sup>(١)</sup>

اما في فترة لاحقة من حياته اصبح ابن خلدون على اتصال مع متصوفة عصره وقبل التعمق في هذا المجال لابد من معرفة عهد ابن خلدون وظهور التيار الصوفي في تلك الفترة اذ نرى ان الاحوال اخذت تتبدل في بلدان المغرب ، فقد وجد تيار صوفي قوي بدء يتخذ اشكالا اجتماعية وسياسية ، صحيح ان تلك الاشكال لم تصبح محددة تحديدا "فعليا" الا فيما بعد عندما تم تحويل المجتمع واعطاءه بنية جديدة ، ولكن نجد ان التيار الصوفي اخذ يتقوى ليصبح ذا تأثير في عصر ابن خلدون وتقيدنا الكتابات الصوفية في هذا العصر ، وان وجود تأليف في التصوف ليس في حد ذاته كافيا للدلالة على اتجاه العصر لان "طويلا ومتشعبا من التصوف المشرقي والاندرلسي كان قد آل الى بلدان المغرب ، ولكن هذا العصر عرف كتابات صوفية كثيرة لمؤلفين كانوا يترددون بين المغرب والاندلس."<sup>(٢)</sup>

ويرجع ابن خلدون السبب في ظهور هذا التيار الصوفي القوي الى سببين هما ضعف السلطة المركزية التي اصبحت عاجزة عن مراقبة الاقاليم البعيدة ، والذي ادى الى ظهور بعض الدعاة في مناطق متعددة بين حين وآخر ، اما السبب الثاني هو تهديد البدو للأمن وظهور الدعاة بينهم وبذلك اتجه هؤلاء الدعاة بالنصيحة والموعظة للبدو املين في ان يتورعوا عن الغارة والنهب اذا هم رجعوا الى الدين.<sup>(٣)</sup>

هذان السببان في رأي ابن خلدون هما اللذان جعلتا التصوف يظهر في هذه الفترة تحديدا ، اما عن صلته بالمتصوفة فقد اورد ابن خلدون انه تولى مشيخة (نظارة) خاتناه بيبرس وهي مشيخة صوفية كما في قوله : ان ملوك بني ايوب اهتموا بانشاء المدارس لتدريس العلم والخوانق لاقامة رسوم الفقراء في التخلق بأداب الصوفي السنية في مطارحة الاذكار ونواقل الصلوات ، واخذوا ذلك ممن قبلهم من الدول الخلافية ، فيختطون مبانيتها ويقفون الاراضي للانفاق منها على طلبه العلم ومتدربي الفقراء ، وان استفضل الريح شيئا "عن ذلك جلوه في اعقابهم خوفا على النرية الضعاف من العيلة (الفقر والفاقة) واقتدى بسنتهم في ذلك من تحت ايديهم من اهل الرياسة والثروة ، فكثرت لذلك المدارس والخوانق بمدينة القاهرة واصبحت معاشا للفقراء من الفقهاء والصوفية."<sup>(٤)</sup>

فوجد ان ابن خلدون قد احتك بالمتصوفة وتأثر بهم في تلك الحقبة بالتحديد واخذ عنهم مبادئ التصوف .



نلاحظ من خلال الاستشهاد بهذه الحادثة ان ابن خلدون الف كتاب شامل خاص بالتصوف للرد على هذه المسألة التي شغلت متصوفة الاندلس وادت الى الخصومة فيما بينهم وهنا لا بد من الاستنتاج انه كان ملما " بالتصوف وهذا الامار جاء من مخالطتهم وفهم افكارهم ليتسنى له تأليف مثل هذا الكتاب.

نلاحظ ان ابن خلدون تأثر بالتصوف في مرحلة تالية من حياته تلت اهتمامه بالعلوم العقلية حين استجد التفكير في ان يعتزل السياسة والعزوف عن الوظائف ، وفي ظهور نزعة جديدة في فكر ابن خلدون وهي نزعة التصوف.<sup>(١١)</sup>

والملاحظة الاخرى هي مخالطة ابن خلدون للصوفية في اثناء عمله على رأس الخانقاه او الرباط الصوفي وهو خانقاه بيبرس واندماجه معهم ، فكان هذا دافعا له في تسجيل الجديد من الافكار عن هذا الفريق من المسلمين.<sup>(١٢)</sup>

والدارس لحياة ابن خلدون يرى ان هذا الميل الى التصوف كان في المرحلة المتأخرة من حياته اذ اصبح ذو ميل الى التصوف اذ كان في فترة شبابه مولعا " بالعلوم العقلية فنراه في هذه الفترة يعرض عن الفلسفة وقضاياها مفضلا العزلة للتأمل والتفكير والمطالعة والتدريس.<sup>(١٣)</sup>

ويتفق مع هذا الرأي عفيفي بان لابن خلدون نزعة صريحة نحو التصوف ظهرت في الجزء الاخير من حياته بعد ان جرب الحياة السياسية وشقي بها فنراه ينقطع في اخريات ايامه في مصر الى القراءة والتدريس والتأليف والعبادة ويخالط الصوفية وكان عظيم التقدير لهم جم الاعجاب بهم.<sup>(١٤)</sup>

### **كتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل وأثبتات نسبته لأبن خلدون وعلاقته بالمقدمة:**

تعد مؤلفات ابن خلدون في التصوف من المؤلفات المهمة في مجال التصوف فكتاب المقدمة الذي خصص فيه فصلا " كاملا " وبعض الصفحات من فصول اخر من المؤلفات التي ألفها ، ابان اعتزاله الحياة السياسية ونزوله في قلعة ابن سلامة<sup>(١٥)</sup> اذ هناك انقرد مدة اربع سنوات (١٣٧٥ - ١٣٧٨ م) للتفكير والتأليف فبدأ بكتابة المقدمة .<sup>(١٦)</sup>

اذ يذكر الحصري ان تأليفه للمقدمة كان سنة (٧٧٩ هـ / ١٣٧٧ م) في مدة خمسة اشهر تقريبا " وكان قد بلغ السنة الخامسة والاربعين من عمره.<sup>(١٧)</sup>

واذ علمنا ان ابن خلدون عاش بعد تأليفه المقدمة مدة تناهز تسعة وعشرين عاما " وقد وجدنا



ان ابن خلدون كتب المقدمة خلال خمسة اشهر ولكن عملية تهذيب وتعديل الكتاب استمرت بعد ذلك بمدة طويلة حتى وفاته.

وعلى ذلك الحصري مستندا الى ان ابن خلدون لم يعد الى ممارسة السياسة الفعالة بعد تأليفه المقدمة ، بل انكب على جمع المعلومات التاريخية ، كما اشتغل بتدريس الفقه في بعض المدارس ، واخيرا مارس القضاء عندما تقلد منصب قاضي قضاة المالكية في مصر ، واتصل بالصوفية اتصالا "وثيقا عندما عين شيخا لخانقاه ببيرس في العاصمة المصرية كل هذه الاحداث التي مر بها نجد صداها وتأثيرها في كتابة المقدمة اذ ان معظم مباحث المقدمة مكتوبة بنزعة عقلانية صريحة في حين ان بعض فصولها تنم عن نزعة صوفية قوية ، والسؤال الذي يطرح نفسه هو هل كان الامر كذلك منذ بداية التأليف؟ ام ان هذا كان نتيجة تطور حدث في تفكيره من جراء اشتغاله بتدريس الفقه وممارسة القضاء واضطراره الى مناقشة علماء الدين والفقهاء.<sup>(١٨)</sup>

بدون شك ان هذه التعديلات والاضافات لم تتوقف طيلة حياة ابن خلدون وكان سببها هو اشتغاله بالتدريس ومناقشة علماء الدين والفقهاء ومن ثم توسع في ادراكه وهذا اثر على الاضافات ومن ثم ظهوره بالنتيجة النهائية.

اما الكتاب الآخر والذي يعد من كتب التصوف لابن خلدون وهو (شفاء السائل لتهذيب المسائل) والذي ألف لخلاف في مسألة معينة وما كان من ابن خلدون الا ان رد على هذا بتأليف كتاب كامل والذي اختلفت المصادر في نسبة هذا الكتاب الى ابن خلدون فقد اكد عبد الرحمن بدوي الى ان هذا الكتاب من تأليف ابن خلدون ، وعلى وجود التناقض والاختلاف بين المقدمة وشفاء السائل الى تطور في فكر المؤلف الواحد ، وهذا التطور هو من شفاء السائل الى المقدمة لان الاداء الذي عرضه في المقدمة انضح واكثر حصافة وتعقلا وانصافا "وابعد عن التوكيدات العنيفة والادانة التي نراها في شفاء السائل بل يكاد المرء يتلمس من خلال سطور كلامه في المقدمة انه يرجع تائبا "مكفرا" عما قاله من قبل بشأن الصوفية.<sup>(١٩)</sup>

ويرجع مرة اخرى بدوي ليؤكد ان هذا التطور في فكر ابن خلدون اذا جزمنا به لابد من ان يكون شفاء السائل اسبق في تأليفه من المقدمة وكما تعلم ان ابن خلدون انتهى من المقدمة في التأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدة خمسة اشهر وعلى هذا الاساس ذهب بدوي الى ان شفاء السائل ألفه ابن خلدون قبل سنة ٧٧٩ هـ.<sup>(٢٠)</sup>

وعد حميش شفاء السائل عملاً فنياً محكوماً باستجابة لدعوة سياسية صريحة أو خفية إلى مناهضة انتشار التصوف الشعبي والزوايا وتقرير شروط إمكان كل مريديه داخل أطر التعليم والتربية السنية السائدة فهل لهذه الأوصاف جميعها لم يذكره ابن خلدون أبداً "في أعمال نضجه التي ستبدأ في السنة الموالية لتاريخ المناظرة المذكورة أي سنة ٧٧٥ هـ حين تفرغ لكتابة المقدمة في قلعة ابن سلامة أن سكوت مؤرخنا عن مؤلفه ذلك في فصل التصوف في مقدمته كما في سيرته التعريف امرأ "محيراً" لا يجد في تفسيره مجرد سهو أو نسيان بل على الأرجح فيه ميل المؤلف إلى استصغار نتاج لا يبعثه على الفخر نتاج وليد قضية سيئة الانطلاق زاخرة بالمزايدات. (٢١)

هذا الرأي الذي طرحه حميش هو الذي استغله بعض الكتاب في إثبات أن ابن خلدون لم تكن له علاقة بكتاب شفاء السائل لأنه لم يذكره في كتبه فيما بعد ولا في كتاب رحلته الذي أرخ لحياته ويعود السبب في ذلك إلى أنه عده من الكتب التي أصدر الأحكام فيها على عجلة ودون دراسة دقيقة وشاملة.

أما الحجج المؤيدة لصحة نسبته إلى ابن خلدون فاهمها :

أولاً : وجود ثلاث تحقیقات لكتاب شفاء السائل وهذه التحقيقات هي لـ محمد بن تاووت الطنجي الذي يذكر نسبة هذا الكتاب إلى ابن خلدون وقد حققه في اسطنبول ١٩٥٧ م . أما التحقيق الآخر فهو لـ لآب اغناطيوس عبده خليفة اليسوعي الصادر في بيروت ١٩٥٩ م من قبل المطبعة الكاثوليكية والذي يثبت عاندية الكتاب لابن خلدون . (٢٢)

وقد اطلعت على الكتاب بنسختيه ، والنسخة التي تعود إلى محمد الطنجي بدون شك هي الأصح والاحسن في الشرح والتعليق .

أما التحقيق الثالث فقد ذكره عبد الرحمن التليلي في هامش مقالته التي أصدرها في مجلة الحياة الثقافية . (٢٣)

ويرى جوده أن وجود ثلاث تحقیقات لكتاب واحد ومن باحثين عرب معروفين تجعلنا نتعامل مع كتاب شفاء السائل بقناعة على أنه لابن خلدون . (٢٤)

ثانياً : بعض علماء المغرب أشاروا إلى هذا الكتاب ، أما صراحة باسمه أو بموضوعه ومن هؤلاء أبو العباس أحمد بن محمد زروق الفاسي (ت ٨٩٩ هـ / ١٤٩٢ م) في كتابه (علاء المريد) وكذلك أبو محمد عبد القادر الفاسي (ت ١٠٩١ هـ / ١٦٨٠ م) إذ أورد الفاسي عبارة : هل لا بد من الشيخ في سلوك الطريق فهي مسألة اختلف فيها فقراء الأندلس من المتأخرين في الاكتفاء بالكتب عن

الشيخ ، وكتبوا بذلك اسنلتهم ، فاجاب الشيخ بن عباد الرندي (ت ٧٩٢ هـ / ١٣٩٠ م) ، وابن خلدون وغيرهم ذكرها ابو محمد الفاسي<sup>(٢٥)</sup>.

اما ابو عبد الله محمد بن أحمد المناوي (ت ١١٣٦ هـ / ١٧٢٤ م) فقد ذكر كتاب ابن خلدون في كتابه (جهد المقل القاصر) في موضعين اذ قال في كلامه عن الاتحاد والحلول ، ذكر ابن خلدون في جوابه الحافل في مسألة الاحتياج الى الشيخ في سلوك طريق الصوفية بعد ذكره ان علوم المكاشفة لا تجوز عند ائمة الطريق الخوض فيها لانها سر بين العبد وربيه<sup>(٢٦)</sup>.

وهناك دراسة لابي يعلى المرزوقي لكتاب شفاء السائل لتهذيب المسائل مع دراسة تحليلية للعلاقة بين السلطان الروحي والسياسي (تونس \_ طرابلس ، الدار العربية للكتاب \_ ١٩٩١) وهناك تحقيق محمد مطيع الحافظ مع ثلاث رسائل في السلوك الصوفي لابن عباد القباب اليوسي (بيروت ، دار الفكر المعاصر \_ ١٩٩٦).<sup>(٢٧)</sup>

وكذلك ما ذكره ابو العباس بن عجيبة (ت ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م) في شرحه (للمباحث الاصلية) في ان ابن خلدون اجاب على المسألة التي طرحت بين فقراء الاندلس ، وافرد لهذه المسألة تاليفا مشيرا "الى شفاء السائل".<sup>(٢٨)</sup>

مما تقدم نرى أن اغلب المؤلفين قد اجمعوا على انتساب كتاب شفاء السائل لابن خلدون ومن ضمن هؤلاء المؤلفين كتاب المغرب وغيرهم ، وقام بدوي بالاستناد الى هذه الكتب وارجاع هذا الكتاب الى كاتبه الاصلي ، وقد علل هذا الاختلاف الذي وجد بين كتابي ابن خلدون المقدمة وشفاء السائل عائد الى تطور تفكير المؤلف في المرحلتين وهذا ما اكده حميش في عدم ذكر ابن خلدون نفسه الى هذا الكتاب في ترجمته لحياته الى ان شفاء السائل كان من اعمال لابن خلدون الصغرى ولا يبعثه على الفخر به واحكامه فيه سريعة ونرجح رأي بدوي وحميش في تحليلهم للوقائع وأثباتهم ان الكتاب يعود لابن خلدون لان نظرة سريعة لحياته وما رافقها من تغيرات متناقضة والعزلة التي اثرها في مرحلة من حياته وما شهدته عصره من انتشار التصوف والكوارث التي مني بها واتصاله بمتصوفة عصره يمكن عددا من العوامل التي تؤثر على احكامه ومن ضمنها احكامه على التصوف.

اما الرأي المخالف لجميع هذه الاراء فقد ذكرها وافي مفندا "بذلك اراء القدماء والمعاصرين في اثبات نسبته الى ابن خلدون وذكر ان شفاء السائل لا يعود الى صاحب المقدمة معتمدا" على الادلة التالية :

اولا : الخلاف الكبير بين هذا الكتاب ومقدمة ابن خلدون في الاسلوب والافكار وطريق علاج المسائل.

ثانياً: "انه لم يرد مطلقاً ذكر الكتاب عند لسان الدين بن الخطيب عن مؤلفاته في كتابه (التعريف) والمعروف ان لسان الدين ذكر جميع تأليف ابن خلدون في المغرب قبل مرحلة تأليفه لكتابه العبر حتى ما عمله في شبابه من ملخصات وشروح ومذكرات صغيرة على مؤلفات غيره ولكن لو كان لابن خلدون كتاب مستقل في التصوف لورد ذكره حتماً" في حديث لسان الدين عن مؤلفات ابن خلدون.<sup>(٢٩)</sup>

هذا الرأي للوافي هو رأي منفرد وخال من الإقناع والمنطق كما مر ذكره سابقاً. ويجب ان ننظر الى مسألة بالغة الأهمية وهي هل ان ابن خلدون ألف شفاء السائل قبل المقدمة ام بعدها وهي مسألة لم تحسم بعد ، على الرغم من رأي بدوي في ان المقدمة جاءت بعد شفاء السائل كما مر سابقاً. وسوف نقارن في مواضيع ذكرت في الكتابين المقدمة وشفاء السائل ونرى اراءه في هذين الكتابين.

### ١- عريف التصوف عند ابن خلدون:

يعرف ابن خلدون التصوف بأنه من العلوم الشرعية الحادثة في الملة واصله ان طريق المتصوفة لم تنزل عند سلف الامة وكبارها من الصحابة والتابعين ومن بعدهم طريقة الحق والهداية وأصل هذه الطريقة هي العكوف على العبادة والانقطاع الى الله تعالى والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاه والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة ، وهذا كان عاماً في الصحابة والسلف فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني الهجري وما بعده وجنح الناس الى مخالطة الدنيا اختص المقلوبون على العبادة باسم الصوفية.<sup>(٣٠)</sup> ويعرف ابن خلدون التصوف مرة أخرى بأنه لما درج الصحابة رضوان الله عليهم ، وجاء العصر التالي لعصرهم ، تلقى اهله هدى الصحابة مباشرة وتلقينا وتعلينا وقيل لهم التابعون ، ثم قيل لاهل العصر الذين بعدهم اتباع التابعين ، ثم اختلف الناس وتباينت المراتب وفشا الميل عن الجادة ، والخروج عن الاستقامة ، ونسى الناس اعمال القلوب واغفلوها واقبل الجم الغفير على صلاح الاعمال البدنية والعناية بالمراسم الدينية من غير التفاف الى الباطن والاهتمام بصلاحه ، وشغل الفقهاء بما تعم به البلوى من احكام المعاملات والعبادات الظاهرة ، حسبما طالعهم بذلك منصب القتيا وهداية الجمهور فاخص ارباب القلوب باسم الزهاد ، وانفرد خواص السنة المحافظون على اعمال القلوب المقتدون بالسلف الصالح في اعمالهم الباطنة والظاهرة وسموا بالصوفية ، واشتهر هذا الاسم قريب المائتين من الهجرة.<sup>(٣١)</sup>



نلاحظ مما تقدم ان التعريفين لابن خلدون في كتابيه شفاء السائل والمقدمة تعريف اقرب ما يكون نفس المعنى ولكن التعريف في كتاب شفاء السائل أكثر شمولية ودقة عنه في المقدمة ويتفق ابن خلدون في الكتابين عن تاريخ ظهور اسم الصوفية وهو المنتين للهجرة.

## ٢- اشتقاق كلمة صوفي عند ابن خلدون:

يذكر ابن خلدون ان كلمة صوفي تعني حسب قول القشيري \_ ابو القاسم عبد الكريم (ت ٤٦٥ هـ / ١٠٧٤ م) : (ولا يشهد لهذا الاسم اشتقاق من جهة العربية ولا قياس والظاهر انه لقب ومن قال اشتقاقه من الصفاء او من الصفة فبعيد من جهة القياس النفوي وكذلك من الصوف لانهم لم يختصوا بلبسه).<sup>(٢٢)</sup>

فibre ابن خلدون والظاهر ان الاشتقاق من الصوف وهم في الغالب مختصون بلبسه لما كانوا عليه من مخالفة الناس في لبس فاخر الثياب الى لبس الصوف.<sup>(٢٣)</sup> ويعاود ابن خلدون مناقشة اصل كلمة صوفي بدقة أكثر في كتابه شفاء السائل وهنا يأخذ برأي القشيري الذي يرى ان لقباً "تداوله الناس للدلالة على الصوفية من دون ان يعرف له اشتقاق محدد".<sup>(٢٤)</sup>

واشتقاق كلمة صوفي كما ذكر من لبس الصوف والقوم لم يختصوا بلباس دون لباس وانما فعل ذلك بعض من تشبه بهم وتخيل من لباسهم الصوف في بعض الاوقات تقلاً "وهذا" انه شعار لهم ، فاعجب بهذا الظن حتى حملة على الاشتقاق منه ، وما لبس الصوف من لبسه منهم الا تقلاً "وهذا" اذ كانوا يؤثرون التحلي بالفقر في كل حال شأن من لم يجعل الدنيا اكبر همهم.<sup>(٢٥)</sup>

وقال اخرون انه مشتق من الصفة ، وان اصل هذه الطريقة مأخوذة عن اهل الصفة وهم المهاجرون الذين اختصوا بالسكن في صفة مسجد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) مثل ابي ذر الففاري<sup>(٢٦)</sup> ، وبلال الحبشي<sup>(٢٧)</sup> ، وسلمان الفارسي<sup>(٢٨)</sup> ، وغيرهم وان اهل الصفة لم يكونوا مختصين على عهد الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) بطريقة في العبادة ، بل كانوا اسوة بالصحابة في العبادة والقيام بوظائف الشريعة وانما اختصوا بملازمة المسجد للغربة والفقر.<sup>(٢٩)</sup>

وكذلك من قال انه مشتق من الصفاء وهو لقب وضع لهذه الطائفة عاماً "يتميزون به ، ثم تصرفوا في ذلك اللقب بالاشتقاق منه ، فقليل ؛ متصوف وصوفي والطريقة تصوف والجماعة متصوفون وصوفيون".<sup>(٣٠)</sup>

نرى مما تقدم من تعريف اشتقاق كلمة صوفي عند ابن خلدون في كتابيه المقدمة وشفاء السائل ان ابن خلدون تناول هذه الكلمة واشتقاقها في كتابه شفاء السائل اكثر دقة وشمولية من كتابه المقدمة.

### ١- نشأة التصوف عند ابن خلدون:

عند الحديث عن نشأة التصوف الاسلامي لا بد من الرجوع الى الصلة التي تربط بين التصوف والزهد ، اذ ان الزهد هو الاصل الذي انطلق منه التصوف ، فالاراء جميعها تؤكد هذه الصلة سواء في الزهد الظاهر الذي يمكن ان نطلق عليه اسم التقشف بنزعة استيطانية تأملية والذي يهمننا هنا هو رأي ابن خلدون في هذه النشأة وقد جاء بتعريف دقيق يعبر بصورة عامة عن اصل التصوف وهو ( العكوف على العبادة والانقطاع الى الله عز وجل ، والاعراض عن زخرف الدنيا وزينتها ، والزهد فيما يقبل عليه الجمهور من لذة ومال وجاء والانفراد عن الخلق في الخلوة للعبادة وكان هذا عاما " عند الصحابة رضوان الله عليهم والسلف ، فلما فشا الاقبال على الدنيا في القرن الثاني للهجرة وما بعده اختص المقبلون على العبادة باسم الصوفية).<sup>(١١)</sup>

مما تقدم نستنتج ان التصوف الاسلامي في بدايته كان مقصورا " على الحياة الزهدية القائمة على الاعتزال والتأمل .<sup>(١٢)</sup> ثم تطورت هذه الحياة فأصبحت نظاما " شديدا " في العبادة ، ثم استقرت اتجاهها " نفسيا " وعقليا " .<sup>(١٣)</sup>

اي ان ابن خلدون يرى التصوف هو العكوف على العبادة والاعراض عن زخرف الدنيا وبما ان هذه الحالة كانت سائدة بصورة طبيعية في زمن الرسول ( صلى الله عليه واله وسلم ) والصحابة رضوان الله عليهم فلم يكن من الضروري ان يطلق على هؤلاء اسم الزهاد او صوفية لان هذه الحالة كانت عامة في الاسلام ولكن عندما انتشر الاقبال على الدنيا اصبح من الواجب ان يطلق على هؤلاء الناس اسم الصوفية وقد حدد ابن خلدون تاريخ التصوف في القرن الثاني للهجرة ، وقد ارجع نشأة التصوف الى الاسلام.

ثم يخبرنا ابن خلدون ان منشأ التصوف من الكتاب والسنة ، وانها مسطورة بأيدينا ، وناقلوها جاهزون لتعليمها ، وان شيوخ الطريقة من جملتهم.<sup>(١٤)</sup>

نرى مما تقدم ان ابن خلدون يرجع نشأة التصوف في كلا كتابيه الى القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة ، اي ان نشأة التصوف اسلامية بحته كانت سمة في عهد الرسول ( صلى الله عليه واله وسلم ) والصحابة رضوان الله عليهم ثم بعد ذلك أصبحت ميزة لدى طبقة معينة من الناس اطلق عليهم الصوفية .

## ٢- مفهوم المجاهدة - المقامات والاحوال عند ابن خلدون:

المجاهدة للمريد عند ابن خلدون هي ان المريد في مجاهدته وعبادته لا بد وان ينشأ عن كل مجاهدة حال نتيجة تلك المجاهدة وتلك الحالة اما ان تكون نوع عبادة فترسخ وتصير مقاما للمريد واما ان لا تكون عبادة وانما تكون صفة مثل الحزن او السرور او نشاط او كسل ولا يزال المريد يترقى من مقام الى مقام الى ان ينتهي الى التوحيد والمعرفة وهذه هي الغاية المرجوة الى السعادة ثم يضيف ان المريد لا بد له من الترقى في هذه الاطوار ويتقدمها الايمان اما اصلها فهو الطاعة والاخلاص اما ما ينشأ عنها فهو الاحوال والصفات التي تكون نتائج وثمرات وهكذا تستمر هذه المقامات الى ان تصل الى مقام التوحيد والعرفان واذ حصل تقصير فيفهم ان هذا اتى من قبل التقير الذي قبله ولهذا يحتاج المريد الى محاسبة نفسه في سائر اعماله. <sup>(٤٥)</sup>

ثم يضيف ان هذه المجاهدة والخلو والذكر يتبعها غالباً "كشف حجاب الحس والاطلاع على عوالم من امر الله ليس لصاحب الحس ادراك شيء منها والروح من تلك العوالم وسبب هذا الكشف ان الروح اذا رجعت عن الحس الظاهر الى الباطن ضعفت احوال الحس وقويت احوال الروح وغلب سلطانه ، ثم يذكر ابن خلدون ان الصحابة رضوان الله عنهم كانوا على مثل هذه المجاهدة وكان حظهم من الكرامات اوفر الحظوظ. <sup>(٤٦)</sup>

اما في كتابه شفاء السائل فقد فصل ابن خلدون المجاهدات الى ثلاث انواع : فالمجاهدة الاولى هي التقوى وهذه تعني الوقوف عند حدود الله لان الباعث على هذه المجاهدة طلب النجاة فكانها اتقاء وتحرز بالوقوف عند حدود الله عن عقوبته وحصولها في الظاهر بالنزوع عن المخالفة والتوبة عنها وترك ما يؤدي اليها من الجاه ، والاستكثار من المال ، وفي الباطن بمراقبة افعال القلب التي هي مصدر الافعال ، اما حقيقة هذه المجاهدة هي الورع. <sup>(٤٧)</sup>

اما المجاهدة الثانية فهي الاستقامة ، وهي تقويم النفس وحملها على التوسط في جميع اخلاقها حتى تنهذب بذلك وتتحقق به ، فتحسن اخلاقها وتصير لها آداب القرآن والنبوة بالرياضة والتهذيب. <sup>(٤٨)</sup>

اما المجاهدة الثالثة فهي الكشف والاطلاع ، وهي محو الصفات البشرية وتعطيل القوى البدنية بالرياضة والمجاهدة ، حتى يحصل له ما يقع به الموت من ذلك او ما يقرب منه ثم محاذاة شطر الحق باللطيفة الربانية لينكشف الحجاب ، وتظهر اسرار العوالم والعلوم واضحة للعيان. <sup>(٤٩)</sup>







شعورية صرفة ، فهي تعبير عن وجد طافح وغامر ، اطلق الصوفية عليه حالة الفناء الشعوري أو المحو والاستهلاك اما مرتبة وحدة الوجود فتجيء تعبيراً " عن مذهب فلسفي خالص في طبيعة الوجود وصلة الموجودات بالخالق تعالى ، وهو مذهب معقد له مقدماته التي تلزم عنها نتائج واحكام ضرورية ، مما لا يمكن التوفيق بينها وبين عقائد الاسلام في هذا الخصوص ، ولهذا فقد صنف ابن خلدون شيوخ الصوفية على اساس من هذه التفرقة التي اقامها بين الوحدتين. (٥٨)

هنا نجد في هذه العبارة ان ابن خلدون يذكر ان السبب في الحكم الخاطيء على الظواهر الصوفية ترجع الى الخلط وعدم التفريق بين مرتبتين مهمتين من مراتب التصوف وهما وحدة الشهود ووحدة الوجود وعلى هذا الاساس سوف تصدر احكام غير واضحة بخصوص هذا وقد قام بشرحها وتحليلها .

واخير فقد اورد ابن خلدون نقداً " لبعض المريدين من المتصوفة يذكرهم بانهم اشبه بالمجانين من العقلاء وهم مع ذلك قد صحت لهم مقامات الولاية واحوال الصديقين وعلم ذلك من احوالهم من يفهم عنهم من اهل الذوق مع انهم غير مكلفين ويقع لهم من الاخبار عن الغيبات عجائب لانهم لا يتقيدون بشيء فيطلقون كلامهم في ذلك ويأتون منه بالعجائب وربما ينكر الفقهاء انهم على شيء من المقامات لما يرون من سقوط التكليف عنهم والولاية لا تحصل الا بالعبادة وهو غلط فان فضل الله يؤتيه من يشاء ولا يتوقف حصول الولاية على العبادة ولا غيرها واذا كانت النفس الانسانية ثابتة الوجود فان الله تعالى يخصها بما يشاء من مواهب وهؤلاء القوم لم تعد نفوسهم الناطقة ولم تفسد كحال المجانين ولكن الذي فقد هو العقل الذي يناط به التكليف وهذه صفة خاصة بالنفس. (٥٩)

هذه اراء ابن خلدون في التصوف وشرح مراحل ومضمونه شرحاً " موضوعياً " يدل على ادراك عميق ودقة في الاحكام وليست اراء متعصبة ومتحاملة فقد حلل جوانب التصوف بسليباته وايجابياته ليصدر احكام خالية من التحيز لاي طرف أو رأي.

### الخاتمة :

يمكن الاستنتاج من هذا البحث مدى تأثير وتأثر ابن خلدون بالتصوف ومتصوفة عصره وهذا يعود الى طبيعة الحياة التي عاشها ابن خلدون والمناصب والوظائف التي شغلها والتي املت عليه الاحتكاك بهذا النوع من الدراسة والمعيشة معا " لهذه الطائفة وبالتالي كان لابد له من ان تكون له اراءه الخاصة به من خلال ما املت عليه ظروف الحياة من تفهم ودراسة عميقة لجوانب التصوف واهله ، وهذا ما قاده الى ان يؤلف كتاب خاص في التصوف الاسلامي وهو ( شفاء السائل







٢٧. مادة من الانترنت / موقع التصوف الاسلامي / مؤلفات ابن خلدون .

٢٨. بلوي ، م. ن ، ص ١٩ .

٢٩. وافي \_ د. علي عبد الواحد ، عبقریات ابن خلدون ، ( القاهرة ، دار عالم الكتب للطباعة والنشر \_ ١٩٧٢ ) ، ص ١٢٧ .

٣٠. المقدمة ، ( بيروت ، منشورات الاعلمي للمطبوعات \_ ١٩٧١ ) ، ج ١ / ص ٣٩٠ .

٣١. شفاء السائل ، ص ١٠ .

٣٢. المقدمة ، ص ٢٩ .

٣٣. م. ن ، ص ٥٧ .

٣٤. شفاء السائل ، ص ١٥ .

٣٥. م. ن ، ص ١٦ .

٣٦. كان يتعبد قبل مبعث الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) ، ولا يعبد الاصنام واسلم بمكة قديما" وقال كنت في الاسلام رابعا" ، ت ٣٢ هـ . (ابن الجوزي\_ ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن البغدادي (ت ٥٩٧ هـ) ، صفة الصفوة ، ط ١ / ، (اللكن ، مط / دائرة المعارف العثمانية \_ ١٣٥٦ هـ) ، ج ١ / ص ٧٧٨ .

٣٧. مؤذن الرسول ، شهد مع الرسول المشاهد جميعها توفي في الشام سنة ٢٠ هـ / ٦٤٠ م (ابن الاثير\_ ابو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري (ت ٦٢٠ هـ) ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق / محمد ابراهيم البنا وآخرون ، (القاهرة ، مط / الشعب \_ ١٩٧٠) مج ١ / ص ٢١٢ .

٣٨. كان فارسيا" من اهل اصبهان من قرية يقال لها جي ثم اسلم وحسن اسلامه . (ابن سعد \_ محمد بن منيع البصري (ت ٢٣٠ هـ) ، الطبقات الكبرى ، بيروت ، دار صادر \_ ١٩٨٥ ، مج ٧ / ص ٣١٨ .

٣٩. شفاء السائل ، ص ١٧ .

٤٠. م. ن ، ص ١٨ .

٤١. المقدمة ، ص ٣٩٠ .

٤٢. حتي \_ فيليب وآخرون ، تاريخ العرب المطول ، ط ٤ / ، (بلاز ، مطابع الفندور \_ ١٩٦٥) : ص ٥١١ .

٤٣. فروخ \_ عمر ، تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون ، (بيروت ، دار العلم للنمليين \_ ١٩٧٢) ، ص ٤٧٠ .

٤٤. شفاء السائل ، ص ٨٠ .

٤٥. المقدمة ، ص ٣٩١ .

٤٦. م. ن ، ص ٣٩٢ .

٤٧. شفاء السائل ، ص ٣٤ .

٤٨. م. ن ، ص ٣٥ .

٤٩. م. ن. ، ص ٢٩ .
٥٠. ابونصر عبد الله بن علي (ت ٣٧٨ هـ) ، اللوح ، حققه / د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، (القاهرة ، مط / السعادة \_ ١٩٦٠) ، ص ٦٥ .
٥١. شفاء السائل ، ص ٨٦ .
٥٢. اومليل ، الخطاب التاريخي ، ص ١٨٣ .
٥٣. المقدمة ، ص ٩٢ - ٩١ .
٥٤. العظيمة \_ عزيز ، ابن خلدون وتاريخيته ، ترجمة / عبد الكريم ناصيف ، ط ١ / ، (بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر \_ ١٩٨١) ، ص ٦٧ .
٥٥. اومليل ، الخطاب التاريخي ، ص ٨١ .
٥٦. ابن خلدون وتاريخيته ، ص ١٧٢ .
٥٧. فتاح ، عرفان عبد الحميد ، نقد ابن خلدون للتصوف ، مجلة / الرسالة الاسلامية ، السنة / ١٧ ، العددان ١٧٠ / - ١٧١ ، (العراق ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية ١٩٨٤) ، ص ١٢٥ .
٥٨. م. ن. ، ص ١٣٦ .
٥٩. المقدمة ، ص ٩٢ - ٩١ .

## قائمة المصادر والمراجع:

١. ابن الأثير\_ ابو الحسن عز الدين علي بن محمد الجزري (ت ٦٢٠ هـ) ، اسد الغابة في معرفة الصحابة ، تحقيق / محمد ابراهيم البتا وآخرون ، (القاهرة ، مط / الشعب \_ ١٩٧٠).
٢. ابن الجوزي\_ ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن البغدادي (ت ٥٩٧ هـ) ، صفة الصفوة ، ط ١/ ، (الدمشق ، مط / دائرة المعارف العثمانية \_ ١٣٥٦ هـ) .
٣. ابن خلدون\_ عبد الرحمن بن محمد بن خلدون (ت ٨٠٨ هـ) .  
التعريف بابن خلدون في رحلته غربا وشرقا" ، علق حواشيه / محمد بن تاوت الطنجي ، (القاهرة ، لجنة التأليف والترجمة والنشر \_ ١٩٥١) .
٤. شفاء السائل لتهذيب المسائل ، عارضه باصوله وعلق حواشيه وقدم له / محمد بن تاوت الطنجي ، (اسطنبول \_ ١٩٧٥) .
٥. المقدمة ، (بيروت منشورات الاعلمي للمطبوعات \_ ١٩٧١) .
٦. ابن سعد \_ محمد بن منيع البصري (ت ٢٣٠ هـ) ، الطبقات الكبرى ، (بيروت ، دار صادر \_ ١٩٨٥) .
٧. اومليل \_ علي ، الخطاب التاريخي دراسة منهجية ابن خلدون ، ط ٣/ ، (بيروت ، دار التنوير للطباعة والنشر \_ ١٩٨٥) .

٨. بدوي\_ عبد الرحمن ، مؤلفات ابن خلدون ، (مصر ، دار المعارف \_ ١٩٦٢) .
٩. البستاني\_ فؤاد افرام ، ابن خلدون مقدمة المقدمة ، ط ٢/ ، (بيروت ، منشورات الآداب الشرقية \_ ١٩٥٠) .
١٠. التليبي\_ د. عبد الرحمن ، مفهوم التصوف عند ابن خلدون ، مجلة / الحياة الثقافية ، العدد ٦٢/ ، (وزارة الثقافة بالجمهورية التونسية \_ ١٩٩٢) .
١١. الجابري\_ محمد عابد ، فكر ابن خلدون العصبية والدولة ، معالم نظرية خلدونية في التاريخ الاسلامي ، (بغداد ، دار الشؤون الثقافية \_ بلات) .
١٢. جودة\_ ناجي حسين ، التصوف عند فلاسفة المغرب ابن خلدون النموذج ، (رسالة دكتوراه غير منشورة) ، جامعة بغداد \_ ٢٠٠٠ م .
١٣. الحاجري\_ د. محمد طه ، ابن خلدون بين حياة العلم ودنيا السياسة ، (بيروت ، دار النهضة العربية \_ ١٩٨٠) .
١٤. حتي\_ فيليب وآخرون ، تاريخ العرب المطول ط ٤/ ، (بلام ، مطابع الغنبدور \_ ١٩٦٥) .
١٥. الحصري\_ ساطع ، دراسات عن مقدمة ابن خلدون ، (مصر ، دار المعارف \_ ١٩٥٣) .
٢٦. حميش\_ د. سالم ، الخلدونية في ضوء فلسفة التاريخ ، ط ١/ ، (بيروت ، دار الطليعة \_ ١٩٨٨) .
١٧. السراج الطوسي\_ ابو نصر عبد الله بن علي (ت ٣٧٨ هـ) ، اللمع ، حققه / د. عبد الحليم محمود وطه عبد الباقي سرور ، (القاهرة ، مط / السعادة \_ ١٩٦٠) .
١٨. الشكعة\_ د. مصطفى ، الاسس الاسلامية في فكر ابن خلدون ونظرياته ، ط ٢/ ، (القاهرة ، الدار المصرية اللبنانية \_ ١٩٨٨) .
١٩. العظمة\_ عزيز ، ابن خلدون وتاريخيته ، ترجمة / عبد الكريم ناصيف ، ط ١/ ، (بيروت ، دار الطليعة للطباعة والنشر \_ ١٩٨١) .
٢٠. عفيفي\_ د. ابو العلا ، موقف ابن خلدون من الفلسفة والتصوف ضمن اعمال مهرجان ابن خلدون ، (القاهرة ، بلات) .
٢١. عنان\_ محمد عبد الله ، ابن خلدون حياته وتراثه الفكري ، ط ١/ ، (القاهرة ، مط / دار الكتب المصرية \_ ١٩٣٣) .
٢٢. فتاح\_ عرفان عبد الحميد ، نقد ابن خلدون للتصوف ، مجلة / الرسالة الاسلامية ، السنة ١٧/ ، العددان ١٧٠ - ١٧١ ، (العراق ، وزارة الاوقاف والشؤون الدينية \_ ١٩٨٤) .
٢٣. فروخ\_ عمر ، تاريخ الفكر العربي الى ايام ابن خلدون ، (بيروت ، دار العلم للملايين \_ ١٩٧٢) .
٢٤. وافي\_ د. علي عبد الواحد ، عبقریات ابن خلدون ، (القاهرة ، دار عالم الكتب للطبع والنشر \_ ١٩٧٢) .